٩ . اسرائيل سرطان . . .

عقدت مصر الهدنة مع اسرائيل في الرابع والعشرين من شباط . وبعـــد ذلك التاريخ جعلت التطورات السياسية والعسكرية في الشرق الاوسط مركز العرب حرجاً الى حد بعيد . لقد واجهوا في رودس مندوبي اسرائيـــل المتصلبين المتعنتين ، ولم يعمل رالف بانش الوسيط الدولي شيئاً يكون من نتيجته تحسين الوضع تحسيناً حقيقياً . ذلك بان الاسرائيليين وقد استشعروا ان البيت الأبيض من ورائهم ، ما كانوا مستعدين للتساهل في شيء على الاطلاق . وفي غمرة من العجز ، وبسببٍ من فقدان حكومـــة قوية في كلا البلدين ، اضطرّ شرقي الاردن واضطرت سوريـة ، آخر الامر ، الى قبول الهدنة .

وفي عمان ، كان مركز الملك عبد الله بائساً حقاً . كان افراد رعيته يتجادلون في موقفه من الحرب ، وكان تدفق مئات الالوف من اللاجئين الفلسطينيين (الذين كانوا ناقمين على سياسته اشد النقمة بسببٍ من انسحاب القوات الاردنية انسحاباً محفوفاً بالاسرار في نوار ١٩٤٨) على مملكته قـد

زاد في متاعب العرش . ففي نوار ١٩٤٩ كان في البلاد الاردنية عدد من اللاجئين الفلسطينيين يعدل عدد سكانها الاصليين . لقد كان سكان الاردن ٤٠٠،٠٠٠ نسمة في كانون الثاني من عام ١٩٤٨ ، فامسوا بعد عام واحد ٨٠٠،٠٠٠ نسمة وزيادة .

ومن الناحية العسكرية كان مركز الاردن سيئاً جداً . فلم يكن لدى الجيش ذخيرة حربية ، ولم يكن البريطانيون يمدونه بالعتاد الا مداً شحيحاً . ولم يكن لدى المملكة الأردنية سلاح جوي عسكري . ولم يكن عندها من سلاح الدبابات والمصفحات غير تلك السيارات المصفحة التي أبلت بلاءً باهراً في انقاذ القدس القديمة . وعلى الرغم من تعزيز الجيش بعدد وافر من المجندين الجدد ، فقد كان الفقر الى الاعتدة يُفقد هذا الكسب أهميته ويُخرجه من الحساب .

وكانت الحال في دمشق لا تقلّ سوءاً عنها في عمان . وكانت زعامة الرئيس شكري القوتلي غير الحاسمة قد قُوّضت دعائمها بسبب من الحرب الفلسطينية . وتفصيل الامر أن الجيش السوري ، المتحرر حديثاً من سلطان الفرنسيين ، لم يكن مزوّداً بأكثر من مقادير رمزية من أعتدة عتيقة مُمانة ، وكان يشكو نقصاً كبيراً في عدد الضباط ومن دونهم من الجنود . فبينما كان الجيش الاسرائيلي غنياً بالقوات المتمرّسة التي خاضت غمرات الحرب الحديثة ،

معزّزاً بمئات من العساكر الاجنبية المرتزقة ، مزوّداً بأوفر السلاح وأشده فتكاً بعد الهدنة الاولى كان جيش سورية غير المنظم ، وجيش الاردن البوليسي يعانيان نقصاً في العدد والقيمة . والحق ، أنه لم يكن ثمة ما يمكن ان يعمل . كانت الروح وثابة ، ولكنْ لم يكن وراءها شيء ماديّ يدعمها .

وهكذا وقع لبنان الهدنة مع اسرائيل في ٢٣ آذار ، وتبعته المملكة الاردنية في ٣ نيسان . وكانت سورية آخر من وقّع ، مُنهيةً النشاط الحربي الفعلي في العشرين من تموز ١٩٤٩ . وهكذا اختُتمت الحرب الفلسطينية جزءاً بعد جزء ، وجبهة بعد جبهة .

وفي تلك الاثناء كانت دمشق تشهد أحداثاً ذات شأن . فبعيد توقيع الهدنة اللبنانية الاسرائيلية حدثت في سورية احدى ثوراتها المعجزة التي لا يكاد يصاب فيها أحدٌ بسوء . ففي الصباح الباكر من يوم ٢٩ آذار ، تقدمت مجموعات من السيارات المصفحة والدبابات الصغيرة تقدماً هادئاً الى المراكز المعينة لها في مختلف أرجاء دمشق ، وهناك انتظرت أوامر جديدة من الزعيم (الكولونيل) حسني الزعيم قائد الجيش السوري في الجبهة الفلسطينية . وكان الزعيم حسني هذا ، وهو كرديّ قصير بدينٌ من حلب ، يبتغي الاستيلاء على مقاليد الحكم . وكان الى جانبه نفرٌ قليل من كبار الضباط السوريين عُرفوا بكل بساطة

بـ « الزعماء » (جمع زعيم أي كولونيل) .

ومن غير ما لجوء الى العنف اقتيد الرئيس القوتلي ومختلف اعضاء حكومته من فرشهم الدافئة وأُلقي بهم في السجن . أما الرئيس فقد احتُجز بسبب من سنه العالية وصحته المعتلة ، في احد المستشفيات . وعند الساعة السادسة كان الزعيم حسني الزعيم يرئس الحكومة السورية ، وحُل البرلمان السوري ، وأعلنت الاحكام العرفية وأذاع رئيس الدولة الجديد ثلاثة بيانات في الناس حذرهم فيها من الأتيان بأيما عمل ضد الانقلاب وطمأنهم الى سلامتهم اذا ما أخلوا الشوارع عندما يحين موعد منع التجول .

ولم يصب أحدٌ بأذى ، في ما يبدو ، على الرغم من ان احد الاوروبيين ، وكان ينزل في فندق « اوريان بالاس » المواجه لمحطة السكة الحديدية والمجاور لعدد من دور الحكومة السورية ، أخبرني انه أفاق ذلك الصباح كالعادة ، ونعِمَ بفطوره ، شأنه كل يوم ، ثم ارتدى ملابسه واندفع في نشاط بالغ الى الشارع ...

وتابع محدثي كلامه فقال انه ما كاد يخرج من الفندق حتى لقيَ أمامه مباشرةً دبابة موصدة البرج . وكان ينبثق من برج الدبابة مدفعٌ ، بدا وكأنما كان يحملق في فمه المفتوح . وفي الحال انقلب راجعاً الى الفندق ، ففقدَ المدفع اهتمامه البالغ به ، وراح يحدّق الطرف في مكان آخر . وباستثناء بضع صدمات عصبيّة مشابهة لم يسقط

ضحية الانقلاب أحد قطّ ، في تلك الآونة ، على الأقلّ .

وبعد ايام قليلة سعدتُ بمقابلة الزعيم حسني الزعيم . وكانت الحدود السورية اللبنانية والحدود السورية الاردنية قد أغلقت بسبب ما شعور الزعيم بان موقف الحكومتين الاردنية واللبنانية من اسرائيل كان ضعيفاً باكثر مما ينبغي . وهكذا كان القاصدون الى دمشق عبر جبال لبنان الفاتنة يجدون انفسهم مضطرين الى التوقف عند الحدود السورية في سهل البقاع الذي لا يقل فتنةً وجمالاً عن الجبال اللبنانية . اما القاصدون الى دمشق من شرقي الاردن ــ شأني انا ــ فكانوا يُصدون عن سبيلهم في درعا حيث لم تكن فتنة او سحر كالذين يتعزى بهما المسافر من طريق بيروت . وايا ما كان ، فقد كان الدخول الى سورية يقتضي ان تكون لك صفة ديبلوماسية رفيعة . ولكن وطأة هذه القيود ما لبثت ان خفت ، لحسن الطالع .

وكان برنامج الزعيم جيداً في ما يبدو . كان يعتزم ان يقدم الى سورية دستوراً جديداً يحقق كثيراً من وجوه الاصلاح ، وفيها منح المرأة السورية حـــق التصويت في الانتخابات النيابية . واسهب الزعيم في الكلام حول هـــذا الموضوع ، فقال لي بالفرنسية وفي ابتهاج عارم :

« ان نساء سورية سوف يرتدين الملابس الاوروبية . انهنّ سوف يرقصن في الشوارع ! »

ولكن كان ثمة شيء في سياسة حسني الزعيم لم يحظَ

برضا الشعب ، وهو ربطُ سورية بتحالف وثيق العرى مع فرنسة . وليس من ريب في ان الذي حدا بحسني الزعيم الى اتخاذ هذا الموقف هو رغبته ، في المحل الاول ، في تعزيز الجيش السوري لتمكينه من الصمود في وجه اسرائيل ، على الرغم من انه قد تكون ثمة حوافز اخرى . وأياً ما كان ، فقد تراءى للشعب السوري ان الزعيم كان يسعى لاعادة السيطرة الفرنسية الى البلاد ، ولم تكن قد انقضت غير فترة يسيرة على تحررها من نيرها . بيد ان ذلك كان مجرد وهم . والواقع ان تشوّش السياسة في الشرق الاوسط ظاهرةٌ لا أعتزم ان افيض في الكلام حولها ، ولست بقادرٍ على ذلك . ولكن حين أوصد حسني ميناء اللاذقية في اواخر شهر نوار وبدأ فيض فجائي من العتاد العسكري الفرنسي يظهر في ميادين حلب وحمص وحماه ساورت الناس شكوك جدية ، ولعل هذه الشكوك ان تكون هي السبب في مصرع الزعيم في منتصف شهر آب من السنة نفسها . وكان الرجل الذي حكم عليه بالموت قد اشترك معه في خلع شكري القوتلي ، أعني الزعيم سامي الحناوي .

تلك صورة عن الوضع الداخلي في البلاد العربية . وفيما لم يُجابه الملك عبد الله بأيما ثورة علنية فليس يدري أحدٌ الى أيّ مدى كانت سلامته رهناً بالتفاف الجيش الاردني حوله . وليس من ريب في ان عاصمته عمان كانت تغص

بمخيمات اللاجئين ، وان مخيماتٍ أخرى كانت تنتصب قرب قصره الشتوي في الشونة ، وفي اريحا بحيث لا يكون في ميسوره ان يتجاهلها حتى ولو رغب في ذلك ..

والواقع ان الملك عبد الله بذل كل ما في وسعه من جهد لرفع معنوية اللاجئين البائسين الذين أضحوا ، فجاءة ، من غير مأوى ، ومن غير ممتلكات أو مال . فكانت قطعان من الغنم تساق ، على نحوٍ مطّرد ، الى مخيمات اللاجئين ، تعزيزاً لأعمال الاغاثة التي كانت تنهض بها جمعية الاصدقاء (الفرندز) الأميركية والصليب الاحمر الدولي . ولكن برغم هذه الجهود الجبارة كان ما بُذل من نشاط في إغاثة اللاجئين دون الكفاية بكثير ، فأذا بكلٍّ من المعسكرات يشهد اسبوعياً مصرع عددٍ من اولئك البائسين بسببٍ من المجاعة والعري . وكان شتاء سنة ١٩٤٩ وربيعها من أسوأ ما شهدته تلك المنطقة في تاريخها الحديث ، وكانت الصحراء منقّطة بأجساد الحملان وصغار الجمال التي صرعها الصقيع .

وكان الدكتور بانش قد رجع ، في تلك الاثناء ، الى الوطن ، تاركاً الميدان للجنة الهدنة المختلطة في دمشق . وكان يرئس هذه اللجنة الجنرال وليم رايلي ، الذي اتخذ من الدور الثالث في فندق « اوريان بالاس » مقراً عاماً له ، وأشرف على نشاط المراقبين الدوليين ، على اختلاف فِرقهم ، من هناك . وكان قد اتضح في الحال ، تقريباً ، أن اسرائيل لا تعتزم احترام اتفاقيات الهدنة المتعددة اذا ما رأت ان

من مصلحتها خرقها او تجاهلها . وهكذا عُزيت القوى العربية ودُمرت على نحوٍ موصول ، وطُرد سكانها الى مناطق اخرى ، وضمت الى الاراضي الاسرائيلية بمختلف الحجج والذرائع . وهذه الاعتداءات هي من الكثرة بحيث يكون من العبث تقديم لائحة بها في هذا المجال ، وهي مدونة كلها في سجلات هيئة الامم المتحدة . وكان كل احتجاج تقدمه الدول العربية على هذه الاعمال العدوانية لا يثير عند حكام تل ابيب غير الاستهتار وتحريف الوقائع ، ولا يخلق في ليك سكسس غير قصة ملفقة في عناية بالغة . ولكن اسرائيل ما كان في استطاعتها ان تخدع الناس القريبين من مسرح الحوادث . ومن هنا جعلت تلك الاعتداءات من المراقبين الدوليين جماعةً لم يعرف هذا العصر اشدّ منهم نقمةً على الصهيونيين وعداوةً لهم .

ولعل ابشع حوادث العدوان هذه ما ترتكبه « شركة تجفيف بحيرة الحولة » على الرغم من أن غيرها لا يقلّ عنها اذىً وضرراً . وتقوم بحيرة الحولة عند الطرف الشمالي الاقصى من وادي عربة . في حين ان العقبة هي الطرف الجنوبيّ الاقصى في اوراسيا * . وتقع الحولة حيث يبدأ الاردن . وإنما يغادر الأردن (الذي حرّف الصليبيون اسمه الى « جوردان » Jordan) بحيرة الحولة نهراً صغيراً ينساب في

* اروبة وآسية منظوراً اليهما كوحدة . [المعرب]

هدوء مسافةً غير طويلة ليندفع بعد ذلك فجاءةً الى المضايق والشلالات التي تنخفض وشيكاً بالنهر المتضخم حتى تنتهي به الى بحيرة طبريا . وبعد أن يفارق هذه البحيرة يتخذ سبيله المتعرجة الى ان يختفي عن العيان في البحر الميت . امـــا المضيق الناشىء عن تقلص قشرة الارض وعن الزلازل وغيرها فيستمرّ في اتجاه الجنوب حتى العقبة .

وتطرأ على صفة نهر الاردن خلال سيره تغيرات جذرية ، فهو يبدأ عذباً بمياه الينابيع والجداول المحتشدة من سفوح جبل خرمون ثم يجمع مقادير من المعادن القلوية خلال انحداره من ارتفاع يبلغ نحواً من مئتي قدم فوق سطح البحر ، حتى ينتهي الى تحوّله النهائي حين يصب في البحر الميت المنخفض نحواً من ١٣٠٠ قدم تحت سطح البحر . ونسبة المـواد القلوية * في نهر الاردن هي التي تقرر ما اذا كان في ميسور الغلال ان تنمو على ضفافه ، التي هي عربية طبعاً ، أم لا . وبحيرة الحولة سورية في معظمها ، ولكنها مجاورة لاسرائيل جزئياً ، ولقد قام الصهاينة باعتداءات متعاظمة في تلـــك المنطقة برغم أنف الهدنة . ولو قد استطاعت اسرائيل ان تجفف او تحوّل مجرى الينابيع العذبة المجتمعة في بحـــيرة الحولة ـ البالغة مساحتها ستة أميال مربعـــة ـ اذن لاستطاعوا ان يزيدوا في نسبة المواد القـــلوية في الاردن الادنى ، وبذلك تغدو الاراضي التي تتميز اليـوم بالخصب

* من المعروف ان المواد القلوية تنزل بالزراعة أذى كبيراً . [المعرب]

أراضي مجدبة ، وتُهجر المدن الزراعية القائمة اليوم على ضفاف الاردن ، والاراضي المروية المجاورة لها .

وذلك ، في ما يُفترض ، هو الهدف الذي يرمي اليه الاسرائيليون . فما إن تُهجر القرى حتى يهرع الصهاينة الى الاراضي القاحلة ، ويفتحوا سدودهم . وحين تستعيد المياه عذوبتها ، ينبت الزرع من جديد وتكون اسرائيل قد ضربت ضربةً غادرة جديدة . ولقد احتجت الحكومة الاردنية احتجاجات متوالية لدى الامم المتحدة ، على هذه الاعمال العدوانية ، ولكن تلك الهيئة العاقر لم تحرّك ساكناً ، ولم تعمل عملاً .

والواقع ان « شركة تجفيف بحيرة الحولة » باشرت أعمالها منذ فترة من الزمان . وكانت الخطة تقصد ، في الاصل ، الى تجفيف البحيرة « مكافحةً للملاريا » . ولكن هذه الذريعة نُسيت اليوم ، في ما يظهر ، فاسرائيل تزعم انها تقوم بمحاولة « استصلاح للارض ابتغاء تعزيز امكانياتها الزراعية» وليس من ريب في ان اسرائيل في حاجة الى الاراضي الزراعية لكي تغذي مشاريعها الخاصة بالهجرة على نطاق واسع ، **ولكن ليس يمكن ان يكون ثمة مبرر شرعي لارتكاب هذه الجريمة الجديدة ضد العرب لان مساحة الستة الاميال المربعة لن تفيد اسرائيل شيئاً إذا لم تُضف اليها الاراضي العربية القائمة على ضفتي الاردن ايضاً .**

وثمة قول بأن شركة تجفيف بحيرة الحولة انما جُمعت اموالها في نيويورك ، ولكن هذه الشركة هي على أية حال ،

شأنَ كل شركة من شركات استصلاح الارض في اسرائيل ، ملك حكومة تل ابيب .

وحكومتا سورية والاردن تدركان اتم الادراك مطامع اسرائيل التوسعية هـــذه ، وتتوقعان دائماً ان تقوم بعدوان جديد على خطوط الهدنـــة من اقصى الشمال حتى خليج العقبة حيث انشأت تل ابيب « ميناء عميق المياه » عنـــد ماوى ذلك الصياد القديم الذي اشرنا اليه آنفاً ، واطلقت عليه اسم « ايلات » الجاهز . وتحمل المياه الى هناك على متون الطائرات ، لانه ليس ثمة ينابيع او طرق بين بير السبع و « ايلات » . ولقد وفق نفرٌ قليل من الاسرائيليين المغامرين الى ان يبنوا آخر الامر بيوتاً لهم حقيرةً في ذلك المكان القصيّ ، فهـــم يأكلون من علب الطعام المحفوظ التي تلقى اليهم بواسطة المظلات . امـــا في موضوع « الميناء العميق المياه » فنحب ان ننص ههنا على على ان الطرف الشمالي من خليج العقبة يضاهي زميله الفارسي ضحولةً ، وان الجزء القابل للملاحة من ذلك الخليج انما يبدأ في المنطقة العربية .

●

ان دولة اسرائيل سرطان أقحم ظلماً وعدواناً ، وفي كثير من العنف ، الى الشرق الاوسط . ولكنها بخلاف السرطان لا تستطيع ان تحيا الى ما لا نهاية له على حساب جيرانها ، ولا بد لها من ان تموت آخر الامر ما دامت لا تملك في

ذاتها مقومات الحياة . لقد قيل ان دافيد بن غوريون تباهى يوماً بان « حدود اسرائيل تقع على ضفاف الفرات ». وسواء أكان بن غوريون قد قال ذلك حقاً ام لم يقله ، فالذي لا ريب فيه ان مسلك اسرائيل كله يؤذن بأنها تهدف الى هذه الغاية . وفي الوقت نفسه تحاول اسرائيل ان تحشر ما يزيد على مليون تاجر من اهل المدن في ثلاثة ارباع بلدٍ لا يستطيع كله ان يحتمل نصف ذلك العدد . وليس ثمة في اسرائيل أيما تصدير صناعي ، ولن يكون شيء من ذلك ممكناً ، ما دام يتعيّن على اسرائيل — حتى لو استطاعت انشاء صناعات قوية — ان تتنافس في هذا الميدان مع فرنسة وبريطانية والهند واليابان . وإذ كانت صناعات اسرائيل تعاني منذ الآن ارتفاعاً متضخماً في أجور العمل ، فالمستقبل يبدو من هذه الناحية غير مشرق البتة .

لقد تردد في الصحف الاميركية ان في النقب وغيرها من الاراضي الداخلة في حدود اسرائيل إمكانيات نفطية حسنة . ولكنا نحسب أنه لو كان ذلك صحيحاً اذن لكان خليقاً به ان يثير اهتمام دوائر المسح الجيولوجي في حكومة واحدة على الاقل وفي كثير من شركات البترول ، ويوقع في قلوبها الغبطة والابتهاج ...

وأخيراً يُشار الى موارد البحر الميت كثروة وطنية تدعم مستقبل اسرائيل الاقتصادي . ولكنْ على الرغم

من وجود المغنيزيوم والبرومين وغيرهما من المعادن في البحر الميت فأن اسرائيل لا تستطيع التفرّد في استغلال هذه الموارد وفقاً لاحكام القانون الدولي الذي يحرّم على الدولة التي تحتل جزءاً من جسم مائي منغلق تملكه عدة دول ان تستقلّ بالقيام بأي تدبير من شأنه ان يؤثر في مستوى المياه او في خصائصها الطبيعية . والحق ان اكثر من سبعين بالمئة من سواحل البحر الميت يقع ، وفقاً لاتفاقية الهدنة الاردنية الاسرائيلية ، في الاراضي الاردنية ، فهو ملكٌ خالصٌ لها .

وعلى الجملة فان الوضع يبدو عجيباً الى حدٍّ متطرف . لقد ابتليت فلسطين فجأةً — وهي منذ القدم بلدٌ عربي — بذلك الشعب الاجنبي العدواني الغريب عنها غرابته عن مانهاتان نفسها . وهو شعب لا موارد له ، شعبٌ عالةٌ على الاموال الاجنبية التي ترده من وراء البحار .

إن اسرائيل لن تعمّر طويلاً . واذا ما سُمح لها بذلك فعندئذ يكون بقاؤها على قيد الحياة اعجوبة شريرة !

انتهـــى